... وعادت جميع طائراتنا سالمة !

قصة بقلم مصطفى أبو الخير

كانت قلوبنا معلقة بين السماء والارض ، تتبادل نظرات ساهمة ، ولكنها مشحونة بالمعاني . كل منا يخشى ان ينطق بحرف ، لئلا يتكلم اكثر مما ينبغي . وكان اليوم يمر بنا ثقيلا ، بطيئا ، يجرجر في كل ساعة احداثا جديدة ، مفاجئة ، تدفع في عروقنا بدم ساخن ، نحس بحرارته .

وكانت اختي اكثرنا صمتا وتوترا : نظراتها حائرة ، لا تكاد تستقر في مكان ، تذرع غرف البيت جميعا ، تحمل في بطنها جنينا مجهول المصير . واللحظات التي كنا نجتمع فيها حول الراديو نسمع الاخبار ، كانت لحظات كئيبة ، تبعث في نفوسنا حيرة ، وفي عقولنا بلبلة ، تجعل ابي ينقد الموقف ، فتمتد يده ثابتة ، وتغلق الراديو ، وينفض الجمع . وكنت أكثرهم هروبا من هذه المواقف ، فادخل حجرتي ، واغلقها خلفي ، وتبدأ مخيلتي في رسم صور شاحبة لحياة سعيدة ، ربما لا تدوم . على انني اهرب من نفسي ايضا ، فارتدي ملابسي واغادر البيت ، ولكن نفسي لا تطاوعني في البعد عنه ، فاكتفي بالجلوس في المقهى المجاور لنا . وكان الجو في هذا المقهى غريبا ، كان الرواد جميعا متعارفين ، فكنت احس بالغربة بينهم ، ولكن الاخبار - التي كانت تنطلق من الراديو بين ساعة واخرى - تجعلني اشترك معهم ، بنفس حماسهم وقوتهم ، في احاديث تخرج من القلب ، ولم يكن شيء يبعث في نفوسنا ، بالفرحة الحقة ، والابتسامة المشرقة ، قدر ما تفعل هذه الجملة العذبة في نهاية كل بيان يلقي به المذيع : « وعادت جميع طائراتنا سالمة » . وكانت هذه الجملة تجعلني اندفع مسرعا نحو البيت ، فاصعد كل ثلاث او اربع درجات في قفزة واحدة ، وتظل يدي ضاغطة على الجرس حتى يفتح الباب ، فاخترق الجميع ، غير ملتفت الى احد ، حتى اقف امام اختي :

- سمعتي الاخبار ؟

- لا ....

- عادت جميع طائراتنا سالمة

فتشرق عيناها ، وتنير ابتسامة وضيئة شفتيها ، ولكنها لا تنطق بشيء .

كان هذا الاستسلام العجيب يغيظني ، بل يكاد يقتلني ، ولكنني لم اكن استطيع ان اقسو معها في الكلام ، فكلما تقع عيني عليها ، احس بشيء دفين في نفسي يتحرك ، فاتصورها حاملة هذا الطفل بين ذراعيها ، ترضعه ، مطرقة ، منزوية في ركن من اركان بيتنا ، صامتة دائما . فاضطر الى الانسحاب من امامها ، وانا لا ادري ماذا اقول .

وكنت ارى ابي ، في هذه اللحظات ، ماردا جبارا ، يقف فوق رؤوسنا جميعا ، فالجأ اليه والكلمات على شفتي تهتز ، اريد ان اقول اشياء كثيرة بصراحة ، فاحس منه رغبة في سماعي ، ولكن عينيه العسليتين القويتين تخترقان نفسي ، فارد بصوت خافت : « عادت جميع طائراتنا سالمة » فينبس ابي : الحمدلله . ثم يضع النظارة على عينيه ، ويستانف قراءة الجريدة التي بيده .

وفي اليوم الرابع ، كانت الساعة حوالي الثانية بعد الظهر ، حين اعدت امي طعام الغداء ، وكنا كلنا نساعدها في ذلك ، فالشعور الذي كان يجمعنا جعلنا نحس بتقارب عجيب ، بل ان محبة داخلية كانت تسيطر علينا جميعا ، حتى ان ابتساماتنا اصبحت من الرقة والانسانية ، بحيث تصورت اننا مجموعة من الملائكة . وجلسنا حول المائدة ، وكنا نتبادل نظرات هادئة ، وكلما التقت عيناي بعيني اختي ، وجدتني اطرق ، وانهمك في الاكل بطريقة عنيفة ، محاولا ان ابدو طبيعيا . وكنت احس ان موقفنا من اختي قد اصبح غريبا ، فان الهدوء الذي كان يسيطر علينا لم يكن عاديا : كان التكلف واضحا ، وربما كانت اختي تحس بذلك ، ولكنها لم تكن تهتم . كانت نظراتها قد بدأت تزداد حيرة ، وشهيتها للاكل قلت ، فالطعام الذي امامها كما هو ، وفكرت في ان اترك المائدة ، ولكنني تنبهت الى انني لو فعلت ، لتبعتني اختي في ذلك ، واحسست كما لو انني التصقت بالكرسي . وكان الصمت قد اطبق علينا ، ولم اعد اسمع سوى حركة الفم والايدي والملاعق في الاطباق ، وكان رنينها جافا خاليا من المعنى والحياة. ونظرت الى امي ، كانت تسرق النظر الى اختي ، عيناها مليئتان باسى غريب وحنان طاغ . واردت ان اقطع هذا الصمت :

- سافتح الراديو ..

ولكن احدا لم يعلق على ذلك ، فازحت الكرسي ، واتجهت الى الراديو وفتحته ، فانبعثت منه موسيقى عسكرية ،احسست بها تخترق عظامي ، وتحيلني الى اعصاب مشدودة ، وعدت الى مكاني ، وكانت شهيتي للاكل قد انعدمت ، فلم امد يدي لشيء ، ولاحظت اختي ذلك ، فنظرت الي قائلة : كل ! .. مالك ؟

وكانت الموسيقى ما زالت تدوي في الراديو ، فخيل الي انها تخترق رأسي ، وان شياطين مجهولة ، تهوي على نافوخي بمطارق من حديد ، وهممت بان اندفع نحوه واغلقه ، ولكن الموسيقى توقفت فجاة كما لو ان التيار الكهربائي قد انقطع ، فتصلبت العيون على الراديو ، وكقنبلة مفاجئة ، انطلق صوت المذيع ، حارا صلبا عميقا : « بيان من وزارة الحربية والبحرية ».

واخذت كلمات البيان تتوالى من فمه . ولم افهم شيئا مما يقول ، ربما لان البيان كان عن المناطق العسكرية ، شيء لا يعنينا بقدر ما تعنينا جملته الاخيرة التقليدية ، ولكن صوته انخفض فجاة وهو يقول : « وقد فقدنا في هذه المعركة طائرة واحدة .. » ومضت فترة صمت عادت بعدهاالموسيقى العسكرية . ولم يتحرك احد منا ، وجمدت عيوننا على اختي ، اما هي فقد اخذت تنقل نظراتها علينا واحدا واحدا ، دون ان تنبس بحرف ، ولاحظت ان صفرة قد صبغت لونها ، وزرقة ميتة قد لطخت شفتيها .

- مالك ؟

- لا شيء

- سيعود .. حتما سيعود .. انه ماهر ، ماهر جدا ..

ولكنها لم تجب بشيء .. اطرقت .

وهمت امي ان تتكلم ، ولكن غصة منعتها ، ولاحظت المجهود الكبير الذي تبذله ، كي لا تنفجر في البكاء ، وامتدت يدها ترفع

الاطباق ، فشاركناها جميعا ، محاولين بذلك ان نتخلص من الجو الذي احاط بنا . واراد ابي ان يتصرف بطبيعية ، وكانه يريد ان يوحي لنا ، وعلى الاخص اختي ، ان شيئا مما يدور في رؤوسنا لا يمكن ان يقع ، فقال بصوت عال ثابت ، ولكن رنة الصنعة بدت فيه واضحة .

ـ اعملوا لنا القهوة بسرعة .

واجتمعنا حول صينية القهوة في حجرة الفعاد ، وبدأت امي تصبها ، وجلست اختي على مقعد مجاور للشباك ، وظلت عيناها معلقتين بالسماء ولا تلتفت الينا ، وقد بدا على ملامحها لون من اللامبالاة احسست فيه بيأس كبير . وكنت احاول ان اجد موضوعا للحديث ، ولكن الجو العام لم يكن يساعد المرء حتى على التنفس، وقد تبادلت انا وابي ، نظرات جامدة تحمل خلفها معاني كثيرة ، لا يستطيع احدنا ان يصرح بها للاخر . ولمحت في وجه ابي بعض الغضون ، لا بد انها كانت موجودة قبل الان ، ولكن هذه هي المرة الاولى التي اجد لها معنى حزينا . وحينما قدمت امي فنجان القهوة لاختي ، تناولته منها ويدها ترتعش فانسكب بعضه في الطبق ، واخذت احدق فيها وهي ترشف من الفنجان ، وتأملت بطنها ، كانت منتفخة ، وعلامات التعب تبدو على انفاسها بوضوح وهي تتردد . وبدأت الصور التي اخشاها تتجسم امامي ، وتذكرت انني في هذه الايام الاربعة نسيت وجه اختي وهي تضحك ، وتمنيت لو رأيت عليه ولو ظل ابتسامة . وبدا لي زوجها عملاقا ، يسيطر على طائرته ، يلقي على الاعداء بوابل من القنابل، ويروغ في مهارة بارعة من مدافعهم ، وتصورته في الجو ، لا يفكر في احد منا ، وانما هو في يقظة عقلية وعصبية ، تدفعه بحماس ، الى ضرورة هزيمة الاعداء ، وهمت ابتسامة بالظهور على شفتي ، ولكنها لم تستطع واحسست ان عضلات وجهي قد نسيت ـ هي الاخرى ـ الابتسام . ولمحت بجانبي جريدة ، فامسكت بها ، واخذت اقلب النظر في صفحاتها ، ولكن عقلي لم يع حرفا واحدا . وكان صوت ورقها وهو يتكسر بين اصابعي واضحا وعاليا ، فطويتها والقيتها بجانبي . وجمدت عيناي على اختي ، وفكرت ان اخرج لاجلس في المقهى ، كنت اريد ان اتخلص من هذا الجو ، ولكن اقدامي لم تطاوعني ، وشعرت برغبة شديدة في الالتصاق بهم جميعا ، وتمنيت لو امكننا ان نغني جميعا في جسد واحد ، فتنتهي هذه المواقف المتوترة . وكنت كلما حاولت ان اتبادل النظر مع ابي ، اجده مطرقا وقد بدت الغضون في وجهه بوضوح .

وفجأة ، اندفعت اختي خارجة من الحجرة وهي تصيح : هو رجع .. رجع ..

ولم نفهم شيئا ، ولم يشعر احد منا بما حدث بعد ذلك . وجدنا انفسنا متجمعين في الشرفة ، ونحن ننظر الى الشارع. كانت عربته الصغيرة واقفة امام باب البيت . وفتح الباب ، وخرج منها ، ورفع راسه الينا . كان وجهه قد ازداد سمرة ، وذقنه طالت ، يرتدي ملابس الطائرة اشعث الشعر ، وكان يبتسم ، ثم لوح لنا بيده .

ولا ادري كيف صعد ، ولا كيف عانقنا جميعا ، مضى كل هذا في ثوان معدودة : انطلقنا نحو باب الشقة ، وصوت اقدامه الثابتة تصتك بدرجات السلم مقتربة منا . وانطلقت الكلمات من افواهنا جميعا في وقت واحد . اما هو فلم يعرف كيف يجيب على شيء منها ، كان ينقل البصر بيننا وهو يبتسم . وجلس على الكنبة ومد رجليه وطلب ان يأكل ... واندفعت امي واختي فاعدتا له طعاما . وحين كان يتناوله ، كنت اتامله والدموع حيرى في عيني ، وغصة الفرحة تكاد تخنقني .

القاهرة — مصطفى ابو النصر

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

*

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينان
او ٦ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

حوالة مصرفية او بريدية

*

الاعلانات

يتفق بشانها مع الادارة

*

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب ٤١٢٣